العنف معاناة حقيقية خلف الجدران (ناصر السهلي)

تحفل زيجات العديد من المغتربين بالكثير من الآلام والمعاناة، تكون ضحاياها في الغالب فتيات مراهقات، يجري تزويجهن، تحت ذرائع مختلفة، ليجدن أنفسهن قد وقعن في مصيدة الاستغلال، حيث لا مهرب من أبغض الحلال

طلاق في المغتربات

عربيات ضحايا التزويج وتقاليد المجتمعات الأصلية

ناصر السهلي

تتشابه في هذا التحقيق قصص 3 سيدات أوروبيات من أصول عربية، سميرة وإلهام وربى، مع عشرات الحالات التي استعرضت خلال سنوات ماضية في وسائل إعلام دول الشمال عن تعرضهن لعنف نفسي وجسدي، بعضها انتهى للأسف بجرائم قتل أنهت حياتهن وحياة أطفالهن، على يد أزواج يعانون عدم اتزان نفسي. وبعضهن تردد كثيرا في الحديث عن تجاربهن، ومرة أخرى خشية «السمعة»، وبعضهن ما زلن في معمعة الخروج من علاقات عنف زوجي. ففي حالة سميرة، 34 سنة اليوم، كان عمرها 4 سنوات حين هرب أهلها من لبنان إلى الدنمارك، عاشت حياة عادية في ضاحية من ضواحي مدينة دنماركية يغلب عليها الطابع العربي. أرادت بعد استكمال الثانوية العامة متابعة دراستها في «جامعة جنوب الدنمارك». أحلامها كانت كبيرة «أردت دراسة القانون الدولي من خلال البدء بالعلوم السياسية، وكان حلمي أن أعمل في الأمم المتحدة». ذات يوم، وبعد نجاحها في «البكالوريا» «حضر ضيوف من نفس الحي يطلبون يدي من أهلي، وقلت لأمي كيف؟ أريد متابعة دراستي.. وبعد أخذ ورد جرى إقناع مراهقة في الثامنة عشرة أن الأمور لن تتعارض، وهو (الخاطب) لا يمانع في استكمال تعليمي». وتردف سميرة «انهار كل شيء، انتقل أهله من الحي إلى مدينة أخرى، فتوجب علينا فعل ذات الأمر، وكلما كانت تأتيني رسائل من الجامعة كان يؤجل البدء بالدراسة، فجأة وجدت نفسي في سن العشرين أمّا لطفل، وخادمة لعشيرة زوجي، أقسى وأسخف معاملة تلقيتها، وبين اشتغالي بتربية الصغير وخدمة أسرته وخدمته كنت أتلقى الإهانات على أتفه الأسباب». لم يتوقف الأمر على تعنيف نفسي، كرمي «العم»، والد الزوج، صحن فنجان القهوة بوجهي لأنه «مبلل بالماء»، «فيما صغيري وواجبات البيت لا يساعدني الزوج فيها بتاتا، وفوق هذا يجب أن أكون جاهزة له حين يريد (حق الزوج)». وعندما بدأت سميرة تعي ما يجري لها كان الطفل الثاني في الطريق، «وبدون مساعدته في أمور المنزل انتقل العنف النفسي إلى الجسدي، كنت عالقة بالمعنى الحرفي، وأعيش ارتباكا حقيقيا لمتناقضات أسرتي المتدينة وهذا الجو الذي يعاقر فيه الزوج الخمور، ويقضي وقته مع رفاق له حتى منتصف الليل غير آبه بي وبالطفلين، وحين يحضر كان العنف الجسدي نصيبي، ظللت على هذا الحال حتى بحت لأسرتي بالجحيم الذي أعيشه، وقررت بعد سنوات إذلال وتعب نفسي أن أضع حدا، وجل تفكيري إنقاذ نفسي وطفليّ من هذا الجو». انتقلت سميرة بمساعدة إخوتها بعد أن تدخلت البلدية وأحد المشايخ، حيث جرى تشخيص أن الزوج مريض نفسيا ويشكل خطرا على أسرته، ولم يستطع أحد إقناعه بضرورة خضوعه للعلاج. تشعر سميرة اليوم بـ«حرية من سجن استمر لسنوات، حيث كان يقول لي إن العنف الممارس بحقي أستحقه وأنه ذنبي، ورغم كل الظروف، وبعد أن لقيت مساعدة نفسية واجتماعية، عدت وأنا في سن الـ30 إلى الجامعة في مدينة أخرى».

تعترف إلهام، وهي اليوم في 35 سنة، أنها عاشت تجربة سميرة طيلة 10 سنوات من عنف نفسي وجسدي، وأنها بقيت في تلك الدوامة «كمدمنة» غير قادرة على كسر الدائرة والخروج من الزواج، الذي استمر منذ كانت في الـ18 وحتى أصبحت في 28 سنة. وتذكر إلهام «ورغم عملي في أحد صالونات التجميل، وشعوري في بداية الزواج بأني قوية، مع عدم السماح لأحد بالصرف علي، إلا أن حياتي تحولت إلى جحيم طيلة 10 سنوات زواج». عاش الزوجان بضع سنوات في جنوب السويد، حيث كان يعيش أهلها «في مالمو صار طليقي (عادل) يعتدي علي بشكل فظيع ويسرق مني راتبي، كان يهددني بعدم البوح بشيء لأهلي». كانت إلهام تقرأ يوما على الإنترنت عن العنف بحق النساء، ومقتل بعضهن على يد أزواجهن بعد فقدانهم السيطرة على زوجاتهم «ارتعبت مما قرأت.. وفي إحدى الليالي كدت أفقد حياتي من ضربه وهو مخمور أو تحت تأثير مخدر، وكنت أقرف سابقا من نفاقه أمام المجتمع بإظهار أنه يصلي وبنفس الوقت خلف الجدران وبعيدا عن أعين الناس شخص مريض ومتوحش، وحين نقلت إلى المستشفى كان والدي يبكي بجانبي حين بحت بكل شيء، وأخبر أبي الشرطة ومسؤولي البلدية بكل شيء، فقمنا بتأمين طفلي، وقلت وداعا لهذا الجحيم.. واليوم وبعد 7 سنوات أقف مجددا على قدميّ بدعم من أسرتي، وأعمل على إعالة نفسي وأعتني بطفليّ من الناحية النفسية، فقد شهدا للأسف كل ذلك العنف، الذي طاولهما أيضا، وأرى أنه من الأفضل تقديم مساعدة للمعنّفات بدل الطبطبة والنفاق الاجتماعي، ولو كان الثمن الطلاق فهو الحل الأمثل، وهو أيضا ما دعمني من خلاله أحد المشايخ المسلمين في كوبنهاغن حين علم بما جرى لي، وهو الذي زوّجنا سابقا». ورغم رفض الطليق تطليق إلهام إسلاميا «إلا أن ذلك الشيخ جمع الأسرة بموظفة من البلدية، بعد انتقالي إلى كوبنهاغن، وأصر بوجود الإثباتات والصور على أن يقوم بتطليقي ودفع مؤخري وكامل حقوقي، ورغم الأثر النفسي العميق أحمد الله أني اليوم قادرة على الاستمرار في حياتي لأجل طفليّ في بيئة صحية، ولأجل مستقبلي وحياتي التي ضاع منها سنوات».

أما ربى وهي اليوم في الـ30 من عمرها، فهي رغم أنها ولدت في ألمانيا جرى تزويجها في سن الثامنة عشرة «بعد عام واحد فقط كانت الصفعة الأولى على وجهي بمثابة الصدمة الأولى. اعتذر عن فعلته في ذلك المساء، وكنت ساذجة حين ظننت أنه صادق حين رمى السبب على الشيطان، ولكن العنف صار محبسي، أعيش في دائرة مغلقة فيه». لم تعانِ ربى من عنف الزوج فحسب، بل من اعتداء والدته لفظيا وجسديا «كانوا يصطفون إلى جانبه، فوجدتني في دوامة من النفاق، كيف يصلي ويسكر في الوقت نفسه؟ كيف يذكر اسم الله ويكفر به عشرات المرات في اليوم؟.. الإحساس بالظلم دفعني يوما إلى التفكير جديا بإلقاء نفسي من الطابق الثالث لأنهي حياتي، فإلى ذلك المستوى المتردي وصل وضعي النفسي، كنت حينها أماً لطفلين، حين قررت كسر الدوامة، وخصوصا تكراره أني أستحق الضرب والتعنيف بسبب كذا وكذا.. لعب في عقلي لأقنع نفسي أني ربما أستحق فعلا لأني مخطئة». كسر دوامة العنف هذه في ألمانيا اقتضى دخولي المستشفى «مكسرة».. حضر أهلي، وقال لي أبي جملة لن أنساها: أنا في ظهرك وخذي قرارك ولا تأبهي لأحد.. فهذا شخص مريض لا يستحق ولا يوما واحدا معه». وهو ما تم فعلا بعد 7 سنوات زواج كان نتيجته طفلة واحدة ولم تشأ أن تنجب معه أكثر.

واقع مؤلم

3 قصص لعربيات تحدثن إلى «العربي الجديد» بصعوبة تعكس فظاعة بعض واقع تعيشه بعضهن في مجتمعات أوروبية، بكثير من العنف والتعنيف مع أزواج من أوطان الأهل الأصلية. الخشية من ذكر الأسماء الكاملة كانت شرطا احترمه «جاليات». ورغم أن بعض الصحافة، وخصوصا في اسكندينافيا تتناول قصص بعضهن، وأيضا بدون أسماء كاملة، من زاوية «السيطرة الاجتماعية»، وربط ما يعشنه على أساس «الدين الإسلامي»، إلا أن القضية بدأت تتوضح أكثر في اعتبار «السيطرة الاجتماعية» ليست مشروطة بالإسلام، بل بتقاليد المجتمعات الأصلية التي ينحدر منها أهالي أبناء بعض الجاليات، وهو ما أكدته دراسات حديثة متعددة في الشأن. سرد قصص نساء شابات من أصول عربية هدفه «نقل واقع تعيشه بعض الجاليات، بما يسيء فعلا للمرأة ولثقافة وتقاليد نتغنى بأنها تحترمها»، بحسب ما تذكر إحداهن، والتي هي بالمناسبة شخصية متدينة ومحتجبة. وأحد الأئمة الذين استطلعنا رأيهم عن زيادة حالات الطلاق على خلفية التعنيف يذكر صراحة لـ«جاليات» أن تناول الموضوع «يحمل أهمية كبيرة، لشرح واقع معاش وحقيقي، وربما يساهم في فتح عيون بعض الأهل الذين يظنون أن تزويج بناتهن، وبعضهن في سن مبكر، في أوروبا، أمر جيد دون التحقق من هؤلاء الذين يجري تزويجهن إليهم». هذا لا ينفي أن الأغلبية تعيش حالة وئام وسلام في حياة زوجية ناجحة، وما تسليط الضوء على الظاهرة السلبية هنا إلا لنقل حقيقة تبدو غائبة وسط صور النمطية عن حياة المهاجر، بحلوها ومرها.

ناصر..

هاجس السيطرة

المحللة النفسانية الدنماركية، إنغريد ينسن، تذكر لـ«العربي الجديد» أن ما يميز «ضحايا الزواج من أشخاص نرجسيين ويعانون أمراضاً نفسية عدة، يزيدها، على عكس الأسر الأوروبية، تدخل أسر الزوجين في تقرير الزواج ثم في الوقوف، في أغلب الأحيان، بصف الزوج المعنف». وتضيف ينسن «رغم أنك تجد ذلك منتشراً أيضاً بين أزواج أوروبيين إلا أنه وللأسف تلعب تقاليد أهل بعض الأقليات دوراً في مسار السيطرة الاجتماعية، والتي ليست بالضرورة محكومة بالدين الإسلامي بل هي مربوطة بتقاليد، حيث نجدها أيضاً لدى غير المسلمين في دول آسيوية وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، ومقدونيا وجورجيا يحمل بعض جالياتها ذات السيطرة الاجتماعية، ما يعني أن الأمر مشروط بتقاليد وثقافات أكثر من مسائل الدين، ونرجسية بعض الأزواج وأمراضهم النفسية تعّقد حياة الزوجات من أصول إثنية أخرى، وفي حالتنا أصول غير دنماركية».

ختان الصبية في الدنمارك... ضجة من جديد

كوبنهاغن ـ العربي الجديد

تثور مرة أخرى في الدنمارك قضية ختان الصبية، بين مؤيّد لاستمرارها ومعارض للسماح بتنفيذها في البلد. فبحسب توجهات بعض الأحزاب والقوى السياسية في كوبنهاغن فإن الختان «يجب أن يكون أمراً يقرره الصبية بأنفسهم حين يبلغون الثامنة عشرة»، على الأقل بحسب آراء مشرعين من كتل يمين ويسار الوسط، فيما آخرون يطالبون بـ«منع تام» للختان، ولو كان على يد أطباء متخصصين. هذا السجال الطبي-السياسي يعود مرة أخرى بعد بضع سنوات من مقترح «شعبي»، بجمع 50 ألف توقيع، كمبادرة تطالب مناقشة البرلمان القضية. فقد سقطت المبادرة بسبب «خطأ تقني» في جمع التواقيع في 2018، بعد حملة إعلامية ضخمة رافقت المقترح. وهذه المرة عاد النقاش ليطرح، أقله في معسكر اليسار، السماح بالختان كشعيرة دينية «إذا جرى تلبية شرط طبي بتخدير شامل للمختون»، بدل التخدير الموضعي المعمول به بين مسلمي ويهود الدنمارك. طرح الختان مجدداً وجد صداه لدى الرأي العام الدنماركي، فبدا أن أغلبية شعبية تؤيّد منعه بنسبة 86 في المائة، بحسب استطلاع «ميغافون» الذي أُجري لمصلحة القناة التلفزيونية الثانية (تي في 2) وصحيفة «بوليتيكن» في كوبنهاغن، وبمشاركة 1150 مستطلعاً.

وعلى الرغم من أن يهود الدنمارك يملكون نفوذاً كبيراً، إذ أسقطوا في مرات سابقة حظر الختان والذبح على طريقتهم وطريقة الشريعة الإسلامية، إلا أن التذرع بمسائل طبية هذه المرة يثير سجالاً غير مسبوق في البلد حول الختان. وإذا كانت، بحسب الاستطلاع، أغلبية شعبية تؤيّد حظر الختان حتى سن الثامنة عشرة، بحجة أن «الشاب يقرر مصيره وليس الأهل»، فإنه في المقابل لا يبدو أن نواب الشعب الدنماركي يتفقون على منع الختان. فبين أعضاء البرلمان الـ179، يحضر التردد في صفوف نواب الحزب الحاكم، الاجتماعي الديمقراطي، يسار وسط، ولدى «فينسترا» الليبرالي، وحزب «راديكال»، يسار وسط، إذ يرفضون إبداء رأي مؤيّد للحظر. وفي المقابل يذهب «حزب الشعب الدنماركي»، يمين متشدد، إلى تأييد منع الختان، وبتركيز على أنه ممارسة إسلامية، وفقاً لوصف مقررة الشؤون الطبية عنه، ليزا لوتا بليكست. أما حزب اليسار، اللائحة الموحدة، فرأى أنه إذا كان سيؤيد الحظر فمن «منطلق طبي وأنه لا يجوز التدخل الجراحي لدى أطفال لا يعانون من عيب خلقي، وليس من منطلق أنه ممارسة دينية وثقافية وتقاليد تخص الأقليات»، بحسب مقرر الشؤون الصحية فيه؛ بيدر فيلبلوند. وفي نفس الاتجاه يذهب ممثل حزب «البرجوازية الجديدة»، يميني متشدد، على لسان مقرره لارس ماتياسن، الذي اعتبر أن معارضة حزبه للختان «لا تقوم على أساس ديني وثقافي لممارسة تجري في البلد منذ أكثر من 100 سنة»، وهو غمز يقصد به «الجالية الموسوية»، أي اليهود الدنماركيين بحسب التسمية الرسمية. فالاصطدام مع رؤوس وحاخامات يهود الدنمارك أمر يحسب له حساب في صفوف الأحزاب الدنماركية، كلما جرى طرح نقاش يتعلق بقضايا يتشارك في ممارستها اليهود والمسلمون.